

أبو عبيدة

٣ (١)

أين نلتبس بحث هذه المسألة وتبين الوجه فيها^(٢) ؟ قد يقال إن كتاب النقائض هو أكبر المصادر وأقربها وأوفاهها بما تتساءل عنه ، وهو كتاب مجموع متحد الموضوع . ويقول الأستاذ أحمد أمين عنه إنه أكبر أثر لآبي عبيدة بين أيدينا يدل على طريقته ومنهجه في التأليف ولغته وأسلوبه . ولكن في نسبة هذا الكتاب ، في صورته التي بين أيدينا ، لآبي عبيدة نظراً نرجو أن نرجع إلى بيانه . فلنتركه الآن ، ولنجعل أصلنا الذي نرجع إليه في تبين أسلوب أبي عبيدة وخصائصه في قصصه في تلك الفصول التي نقلها عنه أبو الفرج في أغانيه . فمن المتفق عليه أن أبا الفرج ثقة فيما ينقل ، متثبت من الأصل الذي ينقل عنه ، كما يصفه ابن النديم بقوله : « وأكثر تعويله كان على الكتب المنسوبة الخطوط أو غيرها من الأصول الجياد » . وهو — فيما يخيل إلينا — نقل في كتابه معظم كتاب الأيام لآبي عبيدة ، وهذا إلى أنه كان ينقل — فيما يبدو — دون اقتضاب أو تصرف .

والذي يظهر لأول وهلة من قراءة هذه الفصول أن أبا عبيدة كان راوية مدققاً ، وقد اصطنع أسلوب المحدثين فيما يروى عن الأعراب ، إذ يسند الأخبار إلى أصحابها ، ويتحرى في هذه النسبة الصدق والدقة ، حتى إذا اشتبه عليه الأمر في أحد هؤلاء الذين يسند إليهم ، غبر عن شبهته ، وذكر الأمر كما وقع

(١) الكاتب المصري عدد ٦ (فبراير ١٩٤٦) .

(٢) تساءل الكاتب في نهاية الجزء الأول من المقال : ماذا صنع أبو عبيدة بالأخبار والأقاصيص أو بعبارة أخرى ماهو أسلوبه وخصائصه في رواية الحياة العربية ؟

له ، فيقول مثلاً : « وحدثني رجل يحيل إلى أنه أبو يحيى الغنوى » . ومثل هذا التحرى غريب في مثل هذه المواضع ، ولكنه يدلنا على أن الرجل كان شديد التحرج في الأخذ بطريقة المحدثين ، في رواية هذه الأخبار .

ومن هذا القبيل أيضاً ما يأخذ به نفسه من إيراد الروايات المختلفة ، إذ كان يروى عن غير واحد في الموضع الواحد ، فيقارن بين هذه الروايات بعضها وبعض ، حين يحتاج الأمر إلى المقارنة ، وذلك حين يقع الاختلاف بينها مهما كان هين الأمر طفيفاً . ولدينا من ذلك مثل قريب في « مقتل زهير بن جذيمة العبسي » حين يذكر موطن زهير وموطن بني عامر ، فأبو سوار الغنوى يذكر أن بني عامر كانوا قريباً من أسرة زهير ولا يُشعر بهم . ثم يعقب أبو عبيدة على ذلك بقوله : « قال عبد الحميد وأبو حية : بل بنو عامر بدمخ وزهير بالنفريات ، وبينهما ليلتان أو ثلاث » . ثم لا يفتقر ضميمه الروائي بذلك ، فيضيف رواية ثالثة عن سليمان بن المزاحم المازني عن أبيه أن بني عامر كانت بالجريرة وزهير بالنفريات .

ومثل هذا كثير عند أبي عبيدة مما قد يضيق به البعض ، ولكنه على كل حال مظهر من مظاهر الدقة التي نلاحظها دائماً عنده ، والتي يتميز بها عن رجل كالصمعي ، كما سنرى بعد .

وهناك ظاهرة بينة في الروايات التي يرويها أبو عبيدة عن الأعراب تصدر ذلك المصدر ، وهو التفصيل في الصور التي تؤديها هذه الروايات . وربما كان هذا التفصيل من الأشياء التي كان خصومه يستندون إليها في اتهمه بالكذب واختلاق الأخبار . ولكنه عندنا مظهر من مظاهر النزوع إلى الدقة التي تدفعه إلى الاستيفاء ، فهو حريص كما رأينا على استيفاء الروايات المختلفة كما سمعها ، وهو حريص على استيفاء أجزاء الصورة وأن يؤديها كما رويت له ، في العبارة والمعنى . ومن ذلك كانت رواياته لأيام العرب أصدق صورة وأدقها للحياة العربية ، كما كان يتمثلها هؤلاء الأعراب ، وهم أقرب الناس صلة بها ، وأدناهم إلى تمثيلها : فالعبارة عربية بدوية ، والسياق عربي بدوي ، والصور عربية بدوية خالصة ، والتفصيل في أجزاء هذه الصور هو ما نعهد في الصور التي نراها في الشعر الجاهلي ، كما في شعر لبيد مثلاً .

ولعلنا نستطيع أن تتمثل ذلك كله تمثلاً قوياً إذا نحن نظرنا في هذه الصورة

التي تجي في فصله عن « مقتل خالد بن جعفر » وهي تصور ناقة في حال حلبها :
 « . . . فأنى الإبل ، فوجد حالبين يحلبان ناقة لمن يقال لها اللفاح ، وكانت
 لبونا كأغزر الإبل ، إذا حلبت اجتربت ، ودمعت عيناها ، وأصغت برأسها ،
 وتفاجت تفاج البائل ، وهجمت في المحلب هجماً حتى تسنمه ، وتجاوبت أحاليها
 بالشخب هنا وهنبا حتى تصف بين ثلاثة محالب . »

فهذه القطعة تعتبر من أروع مثل الفن التصويرى الفطرى ، دقة في
 الوصف ، واستيفاء لمقومات الصورة التي تمثلهم من نواحيها المختلفة ، وصدقاً
 في العبارة التي تعبر عنها بمعاني ألفاظها وجرسها ونبرات حروفها جميعاً ، تعبيراً
 طبيعياً لا صنعة فيه ولا تكلف .

على أن هذا النزوع إلى الدقة الذي نراه في تلك الظواهر كما يكون مرجعه
 إلى الروح العلمية التي تفرض على صاحبها الأمانة في الرواية ، والدقة في النقل عن
 الرواية ، كما هو الشأن عند المحدثين ، يمكن أن يكون مرجعه أيضاً إلى الروح
 الفنية التي ترى في هذه الدقة مظهراً من مظاهر الكمال الفنى ، في إخراج الصورة
 حية نابضة ، وفي إبرازها بجميع أجزائها وملاحمها وقسماتها ، وفي شتى الملابسات
 التي تلابسها وتحيط بها وتنشر الظلال حولها وتكيف الجو الطبيعى لها .

ويظهر أن كلا من الروحين : الروح العلمية والروح الفنية ، كان عاملاً
 قوى الأثر في عقلية أبي عبيدة ، وقد كانا يجتمعان في هذا النزوع إلى الدقة ،
 ويختلفان في بعض المظاهر الأخرى ، وإن كنا نرجح أن الروح الفنية كانت
 شديدة السيطرة عليه ، بعيدة الأثر في احتفاظه بهذه الصور كاملة مفصلة على
 النحو الذي نراه . أما الروح العلمية فنرى من مظاهرها ذلك الحرص على تمييز
 الروايات المختلفة ، وإفراد كل رواية على حدها ، وإن ترتب على ذلك تشتيت
 أجزاء الصورة الواحدة بين هذه الروايات التي تتكامل فيما بينها . ولولا هذه
 الروح العلمية المتحرجة لاستطاع دائماً أن يجمع بين هذه الروايات في رواية
 واحدة ، تضم أجزاء الصورة جميعاً .

ولابد لنا من مثال يوضح هذا المنهج الذي يصدر عن هاتين الروحين معاً ،
 وليكن هذه القطعة من خبر ورقاء بن زهير ، وهي التي تمثل شاس بن زهير وهو
 عائد من عند النعمان .

ففي هذه القطعة نرى أبا عبيدة يورد روايتين ، تشتمل كل واحدة منهما على بعض أجزاء الصورة ، وتظهرها من إحدى ناحيتها . فالأولى تصور ما كان شأس يحمله معه من لدن الملك النعمان : « مسكا وكُسا وقُطُفًا وطفنفس » وتصور حالة الجو حين أناخ راحلته ، وموضع الإناخة : « في يوم شمال وقر » ، على ردهة في جبل ، ورياح بن الأسك أحد بني رباح . . . على الردهة ، ليس غير بيته بالجبل . وهذا هو أحد جانبي الصورة أبرزته هذه الرواية ، ثم تجمل صورة اغتساله ومقتله بعد ذلك ، وتطويها في سرعة . فأما الرواية الثانية فتجمل هذه الصور التي عنيت الرواية الأولى بإبرازها مفصلة ، وتفصل ما أجملته ، فتصور وقت الإناخة بأنه كان في الظهيرة ، ثم تذهب تبرز الجانب الآخر من الصورة ، فتصور شأس بن زهير وقد « ألقى ثيابه » ، ثم قعد يُهريق عليه الماء ، وتصوره وهو قاعد عريان : « فاذا هو مثل الثور الأبيض » ، ثم تصور ما كان بين رياح وامراته إزاء ذلك المشهد ، إذ يقول لها : « أنطيني قوسى » ، فمدت إليه قوسه وسهما ، وانتزعت المرأة نصله لثلاث يقتله . ثم تفصل صورة مقتله بسهم ليس فيه نصله : « فأهوى عجلان إليه ، فوضع السهم في مستدق الصلب بين فقارتين ، ففصلهما ، وخر ساقطاً . وحفر له حفراً ، فهدمه عليه ، ونحرجمله وأكله » . وإلى هنا يمكن أن يقال : إن الصورة تمت ، واستطاع القارئ أن يتمثلها من جوانبها المختلفة . ولكن أبا عبيدة يلاحظ — ولزغته الفنية شأن كبير في هذه الملاحظة كما يبدو — أنه لا يزال في الصورة موضع خلل ، فما بال هذه الهدايا التي كانت مع شأس ؟ وبذلك نراه يستكمل هذا النقص ويسد ذلك الخلل ، فيعقب على ذلك بقوله : « وقال عبد الحميد : أكل ركوبته وأولج متاعه بيته » .

فهذا مثال يبين لنا كيف كان يصنع أبو عبيدة بالروايات التي يرويها عن الحياة العربية ، وكيف كان في سبيله التي اتخذها في ذلك يتردد بين الروح الفنية والروح العلمية التي كانت بيئة البصرة إذ ذاك تقرضها فرضاً ، وكانت دراسته للحديث وفن الرواية ، وتلقيه عن مثل أبي عمرو ، يأخذها بها أخذاً شديداً . ومع ذلك استطاع — كما رأينا — أن يوفق بينها وبين الروح الفنية ذلك التوفيق ، وقد أعانه عليه ما ذكرنا منذ قليل من اشتراكهما في تطلب الدقة . ولعلنا نستطيع أن نتبين أسلوب أبي عبيدة في هذا فوق ما أوردنا إذا نحن

قارناه بغيره ، كأسلوب الأصمعي مثلاً . وللأصمعي قطعة بين أيدينا تصور ذلك الموضوع نفسه الذى رأينا ، فلننظر ماذا صنع ، ولنقارن صورة بصورة . يقول الأصمعي : « حدثني غير واحد من الأعراب أن سبب مقتل زهير العبسي أن ابنه شأس بن زهير وفد إلى بعض الملوك ، فرجع ومعه حباء قد حبى به ، فمر بأبيات من بنى عامر بن صعصعة ، وأبيات من بنى غنى ، على ماء لبنى عامر أو غيرهم . قال : فاغتسل فناداه الغنوي : استر ، فلم يحفل بما قال ، فقال : استر ويحك ! البيوت بين يديك ، فلم يحفل ، فرماه الغنوي رياح بن الأسك بسهم ، أو ضربه ، فقتله . والحى خلوف » .

فلندع ما نفقده فى هذه القطعة من الروح العالمية التى نراها عند أبى عبيدة ظاهرة ، وإن تكن مع ذلك متجلمة ، ولننظر فيما وراء ذلك نظرة سريعة . فسرى الفرق واضحاً بين الرجلين : بين ما يعرضه أبو عبيدة فى رواياته المتفرقة وما يعرضه الأصمعي فى رواياته المجمعة . فبالرغم من تشتت أجزاء الصورة عند أبى عبيدة نراها واضحة الملامح بينة الظلال حية نابضة ، وقد استطاع أن يضع هذه الأجزاء ، كما تؤديها الروايات المختلفة ، فى سياق فنى . أما الأصمعي فلا نكاد نجد عنده شيئاً من ذلك . فهذه القطعة التى رأيناها لا تستطيع أن تحدث لنا تلك المتعة الفنية التى أحسنها عند أبى عبيدة ، إذ كانت لا تنقل إلى خيالنا إلا الخطوط الأولية للصورة ، أو الهيكل العظمى للقصة ، أما ملامح الصورة ونبضاتها وروحها المقومة لها ، فلا أثر له فيها . وكما أن هذه المقارنة بين هاتين القطعتين جديرة بأن تبين لنا عقلية أبى عبيدة والنزعات التى كانت تسيطر عليه ، فانها توضح لنا الفرق بين هذين الرجلين اللذين جمعهما عصر واحد ، وبيئة واحدة .

وبعد ، فقد كان أبو عبيدة — فى جملة القول — رجلاً مرهف الحس ، دقيق التصور ، قوى الخيال ، حاد الذكاء . وكان يجمع بين خصائص العلماء وخصائص رجال الفن . وبذلك استطاع أن يؤدى صور الحياة العربية واضحة قوية ، وأن يظفر فى ذلك بثقة معاصريه به وإكبارهم له . ولو أن ترائه من هذه الناحية وصل إلينا كاملاً لكان لنا أن ندعى العلم بالحياة العربية علماً أدق وأوفى وأشمل .